رسائل ثقافية

سوريا : من كمال أبو ديب

تتجمع في سوريا خيوط كثيرة تجعلنا نسأل بأسى وتوقع : هل سنحن يوماً الى من يكتب لنا « ذوبان جليد » سورية ؟ هذا التوقع ينبع من احساسنا بان في سوريا « شيئاً ما » ، شيئاً اقرب الى ان يكون اصابع تمتد لتحاول رسم قناة جليدية معينة لادبنا . وتبرز بصمات هذه الاصابع في مقالات لادباء سوريين شباب يتبنون شعارات ادبية ملتزمة ، تجعلهم يقفون موقفاً عصبياً نزقاً مما يسمونه « ادب التشرد والهزيمة والموت » منصبين بهجوم عنيف على الادب الذي لا يتبنى الجماهير ومشكلاتها وشعاراتها واهدافها ، منطلقين من ان سوريا تعيش الآن مرحلة الثورة والبناء اللذين تصنعهما الجماهير ، فمن واجب الادب ان يتبنى « مرحلية » معينة ، يجري فيها مع الثورة والبناء.

يقول احدهم: « اما حين نفسر انسانية المسرح على انها عرض لموقف الانسان من الموت او لموقفه من الآخرين ، او لموقفه من عبث الحياة ، فاننا نكون قد قضينا بايدينا على المسرح الذي انشأناه. ان شروطنا الاجتماعية والثقافية تحكم علينا ان نبحث بحثاً جاداً عن كل مسرحية تبحث في ظاهرة من ظواهر حياتنا وتعالجها ، كما ان هذه الشروط نفسها تقضي بالابتعاد عن المشكلات المجردة او عن الالاعيب الفارغة من المعنى » .

ترسم هذه الفقرة ابعاد المرحلية المتبناة ، مرحلية تعتبر « موقف الانسان من الموت والآخرين وعبث الحياة » الاعيب فارغة من المعنى . وهي بذلك تؤكد انها لا تفهم تبني الثورة الا عن طريق تبني شعاراتها الجماهيرية .

ومن ذيول هذه الدعوة ، شيئان اود ان اشير اليهما . الاول، هو ان فضيلة رسميي الثورة تكمن في بقائها بعيدة عن ان تسهم في تحديد البوتقة . والثاني ، وهو امر غريب ، هو ان اصحاب الدعوة كانوا اكثر الناس تشدقاً بالهزيمة والضياع والانسحاق الآلي و « موقف الانسان من الموت والآخرين وعبث الحياة » ، حتى عهد قريب.

ان نقول : ليس في سوريا ادباء ، قول فيه كثير مما يستغرب ، على وجاهة مبرراته . لنقل اذاً : ليس في سوريا نتاج ادبي . والفقر في النتاج يشمل كل الوان الادب ، شعراً ، وقصة ، ومسرحاً ، ورواية .

ولن نلهو بالدراسات الاحصائية لنثبت انه ليس في سوريا شعر. فما ينشر في سوريا، وهو نادر نادر، وما ينشر خارج سوريا ، وهو مثيله في الندرة ، لا يعني ان في سوريا شعراً ، لاننا لسنا موظفين في دائرة الاحصاء . فما يهمنا من الشعر في سوريا ، الاشارة الى العنصر الثقافي في شخصية الشاعر عندنا، والى محميات الشعر وسلطانه .

قد يكون من القسوة ان نقول ان الشاعر عندنا ما يزال يؤمن بانه سليل وادي عبقر ، وان هبيدا، شيطانه الجني الازرق ، هو ملك الوحي الوحيد الذي يمكن ان يهبه شعراً جيداً . وما دمنا على ايماننا هذا فان الشعر عندنا سوف يظل ضمن دائرة الشعر الغنائي الذي يحدى به خلف آثار المعارك

العاطفية الغرامية لادباء مخفقين في حبهم ، وقوافل الدانتيلا والعطور الباريسية المهاجرة ، وتنورات الحلوات ، او خلف آثار الاحداث السياسية والمهرجانات الخطابية . واما ان في العالم شعراء يؤمنون بان الثقافة والتغلغل في فهم التراث الانساني والنفس البشرية و « موقف الانسان من الموت والآخرين وعبث الحياة »، ما يمكن ان يقدم شعراً حقيقياً ، فذلك ما لا يفهمه ابناء عبقر في سوريا .

واما عن محميات الشعر ، فالحديث ، رغم الجانب المثير للسخرية فيه ، شجون . ففي سوريا « محمية » للشعر اسمها « لجنة الشعر » في المجلس الاعلى، مهمتها ان يعقد اعضاؤها اجتماعات تتوالى منذ اربع سنوات حتى الآن بانتظام هو فضيلة الاعضاء الوحيدة . يتسامرون فيها ، ويتندرون. واذا ادت عملاً، اعلنت عن مسابقة للشعراء الشباب الناشئين — كما فعلت حديثاً — لهم فيها جوائز ، يمكن ان يحدس سلفاً بمن يفوزون بها . او اقامت مهرجاناً للشعر ، يلقي فيه اعضاؤها قصائدهم على الناس، بدل ان يلقوها على بعضهم البعض، لتتوزع المصيبة على اعصاب عدد اكبر ، فيخف تأثيرها . وما قلناه عن انعدام النتاج الشعري يتحقق في النتاج في القصة القصيرة والرواية والمسرحية ، بصورة تجعل الادب سمكة تطفو ، مقلوبة ، على سطح الماء .

ليس في سوريا كلها دار للنشر على مستوى دور النشر اللبنانية . وليس فيها صحف ادبية ومجلات تفسح صدرها للانتاج الادبي . وفي سوريا نوعان من القراء . القارىء الاول ، وهو النسبة العظمى الكاسحة ، ما يزال يبحث حتى الآن عن الادب الفارغ المسلي ، تماماً كالمشاهد السينمائي عندنا ، الذي يتتبع افلام ماشيستي وهرقل وعضلات ماوك فورست . ومشكلة هذا القارىء يمكن ان تلمس في ضحالة ثقافته وفي طغيان الاهتمامات السياسية لديه على الاهتمام بالفكر . ولا اعني بالاهتمامات السياسية وجود نوع من التفكير المثقف سياسياً ، وانما اعني الغوغائية السياسية ذات الابعاد الضحلة المستنقعية . ومن هنا قد تكون مهمة وزارة الثقافة بالدرجة الاولى محاولة خلق قارىء واع ذي تربة متفتحة للفكر الانساني . الا ان سوريا تقدم قارئاً آخر : هو القارىء المثقف ، الذي عمق اتصاله بالآداب العالمية ، ومثل هذا القارىء بعيد عن الادب المحلي بعد القارىء الاول عنه . ذلك انه يرى في الادب العالمي مجالاً واسعاً لاستكناه النفس البشرية . فهو يشغل وقته ونشاطاته كلها ، بثروته وفهمه العميق للانسان وغناه الفكري والتكنيكي ، مما يجعله بعيداً عن تتبع الانتاج المحلي ، بنوع من التعالي عليه، مثيراً ضده معركة قاسية متهماً اياه بالضحالة والسطحية والفراغ والجدب الفكري . ولعل في تتبع الآثار الادبية المقروءة في سوريا ، خلال السنوات العشر الماضية ما يمكن ان يلقي ضوءاً على تطور المفاهيم الفكرية . فبينما كان الادب الجماهيري الحماسي (سليمان العيسى مثلاً) يحتل المرتبة الاولى، خلال فترة الاحداث السياسية الزاخرة منذ ٥٨ — ٦١، وبينما كان نزار قباني خلال الفترة التي سبقت ، منذ ٥٤ — ٥٧ ،الشاعر المقروء،اصبح الامر الآن على قدر من الاهتزاز.فالعيسى والقباني لم يعودا اليوم يثيران ما اثاراه، في الوقت الذي لم يولد فيه شاعر يستقطب القراء خلال فترة ٦٠ — ٦٤ ، هؤلاء القراء الذين يستقطبهم الشعر الحر في لبنان والعراق.والملاحظ خلال هذه الفترة الانصراف لدى القارىء العادي عن الادب جملة ، والانصراف لدى القارىء المثقف الى الادب الغربي ، وطغيان الفكر الوجودي طغياناً كاملاً. وبينما كانت سوريا خلال ٥٤ — ٥٨ تتبع ، قراءة وترجمة ، انتاج المدرسة الواقعية الاشتراكية ، بتأثير من سيطرة الشيوعيين على الحكم ، يبدو طغيان الفكر الوجودي على الادب خلال فترة ٦٠ — ٦٤ ، طغياناً تاماً . وتقترب مؤلفات سارتر وكامو وده بوفوار من ان تكون

محور اهتمامات الجيل .

ويطغى الاهتمام بالحركة المسرحية ، والرسم ، على كل النشاطات الاخرى . فقد قدمت حتى الآن مسرحيات عالمية لدستويفسكي وتنسي وليمز وبرتولد بريخت وغوركي وسواهم . الا ان ما يهمنا ليس احصاء المسرحيات ، بل القضايا التي تثيرها الحركة المسرحية . وهذه القضايا تتركز في الانتاج المحلي في المسرح ، وفي الجمهور ، وفي محاولة اخضاع المسرح للمرحلية التي تحدثنا عنها سابقاً .

وتظل مشكلة الانتاج المحلي مشكلة الكاتب الفرد في رأينا . وما تحاول لجنة المسرح ان تفعله من تخصيص جوائز للمسرحيات المؤلفة، ثم عمد الى تكليف كتاب معينين بكتابة مسرحيات، لا يمكن ان يحل الازمة . فالمشكلة تتمثل في الانتاج الادبي كله ، لا المسرحي فقط ؛ في فقدان الكاتب الفرد، فقدان الموهبة والثقافة . وفقدان الموهبة لا يمكن ان يعزى الى اسباب خارجة عن نطاق الفرد ، لتنسب الى عوامل بيئية صرف تحل عن طريق التكليف الرسمي .

اما الجمهور فيمكن ان نلحظ تزايد اهتمامه بالمسرح ، الا ان هذا الاهتمام يتجه في خط بياني يتضح من الاقبال على مسرحية وليمز « مجموعة الحيوانات الزجاجية » وندرة المشاهدين لمسرحية بريخت « القاعدة والاستثناء » ، رغم معالجتها مشكلة اقرب الى مشاكل « المرحلية » التي يطالب بها ادباؤنا . ويبدو ان جمهورنا ما يزال يبحث عن « الحادثة » ، عما هو غير عادي في شخصية البطل وعما هو خارق ومتفوق وشاذ . وتظل قضية المرحلية المطلوبة، القضيةالاكثر خطورة، ويوضحها ما قدمناه سابقاً كما يوضحها الهجوم العنيف والالفاظ النزقة التي قوبلت بها مسرحية تيرسو ده مولينا « الخجول في القصر » .

قصة الفن في سوريا شائكة. ففي الاتهامات التي توجه الى المدارس المعاصرة شيء يدعو الى الاهتمام بمفاهيم الجمهور عندنا . من اجل محاولة فهم فناننا واعمالهم وآرائهم اجريت حديثاً مع ثلاثة فنانين في معارضهم التي اقيمت في دمشق مؤخراً . وتركز الحديث في سؤالين : اولاً ، هل تحاول ان تقدم رؤية خاصة للعالم وفهماً ذاتياً يستند الى خلفية ثقافية وتجريبية معينة؟ وما هي حدود هذهالرؤية؟ ثانياً ، في اختيارك للاسلوب ، هل ينبع الشكل لديك من المضمون ، ام انك تلتزم اسلوباً واحداً تحاول ان تصهر فيه اي مضمون يعبر في عالمك الداخلي ؟

قال نبيل المالح : وراء كل عمل انساني لا بد ان يقف معنى ما ، اي معنى . لكن هذا المعنى موجود، وهو الذي يعطي لحياتنا ووجودنا عناصر غائيته . والسلوك الانساني بمجرد ان يصبح فعلاً مجرداً يجعلنا نشعر بانه لا معنى ولا هدف يقود الانسانية والانسان الى عوالم ومجاهل افضل واعمق ... ولكن الانسان يسأل ملتفتاً حوله : اكان لكل ما منحته الانسانية معنى ؟ وهذا التساؤل بالذات قد يقودنا لان نفقد الثقة في اي معنى من المعاني ، ويدفعنا لان نشك في انسانيتنا وجدواها . فثلاثون الف سنة من الحضارة الانسانية بكل آلامها ودمائها لم تستطعان تعطينا شيئاً سوى الفوضى واللامعقول والمادية المحرقة التي تلسع جباهنا ... المعنى لا بد ان يكون في مكان ما . وعلى الاقل ، او بالاحرى ، يجب ان يكون فينا نحن انفسنا . ان خيوط المأساة تتجمع فينا ، ونحن الذين نقطعها او ننسجها . والهرب ليس خلاصاً ، وانما الخلاص في مجابهة العالم وخلق عالم جديد. ويبدو ان هذا هو المعنىالذي اعنيه، خلق عالم جديد يبدأ من ذواتنا .

في معرضي لوحات تحمل طابعاً عقلانياً ، ولوحات اخرى لا تحمل سوى الاحساس والتعبير عن الاحساس . اما اعمالي ذات الطابع العقلاني، فهي لوحاتي السريالية التي حاولت فيها ان انقل

رؤى وافكاراً الى خطوط والوان وعوالم مدروسة دراسة كاملة . واما اللوحات الاخرى فان انجازها لا تسبقه اية معالجة عقلية ، والرؤى تنتقل كما هي الى الورق . وانا في محـــاولاتي الشعورية للرسم باحساسي لم ولن افكر في اللـون او الخط . ان ذلك يحدث دون اي تدخل من عقليالواعي، لذلك ارسم بسرعة واللوحة التي لا اتمها في جلسة لا اتممها ابداً . واذا فقدت صلتي بهـــا بحديث تلفوني او مقاطعة كلامية مثلاً ، انفصل عنها تماماً . وكل ما احاول ان اضيفه اليها اجده مفتعلاً وغير حقيقي.

وقال فاتح المدرس : نعم . رؤيا خاصة جـداً يمتد منهـا خيط حرير يرتبط بالحلقـة الوهمية التي تحدد المفهوم المعاصر للقيمة . خذ لوحة « سمـــاء حرب » مثلا : انها تمثل مساحات لونية وخطوطا، تمثل طفلين مذعورين استندا الى جدار ينظران الى سماء حرب . هذا هو الموضوع . ولكن هـل قوة الموضوع لها علاقة بجودةالانجاز الفني؟ اعني بالانجاز الفني في الرسم القيمةالمعاصرة المتجهة نحو التجريد. لا ، فالرسم شيء والفلسفة شيء آخر . ان الفكرة المعالجة في لوحة ساعة الانجاز تفقد كل قيمة فلسفية ويتجه اللون والخط نحو عالمي اللون والخط فقط . فكل هذا الجسد اللوني والهيكل الخطي هما حـالة الرؤيا في الرسم ، اما الفكرة فتسقط . لان عـالم الفكرة يأتي ثانياً لا اولاً . والمضمون عندي ليس بمضمون الفكرة بـل مضمون الشكل (من حيث تركيبه المساحي اللوني والهيكل الخطي) . امـــا البقية فبحدود اللون والخط والمساحة فقط ، ليس من حيث الشكل الادبي او الفلسفي او الشعري . اعني انني افصل الفلسفة والادب والشعر عن عـالم الرسم . فالرسم للرسم فحسب . امـــا اسلوبي فهو تعبيري يهدف الى التجريد ، وان عـالمي الداخلي اي عالم « الانا » هو الذي يحول المادة التاريخية الى مادة فنية . فانا ضد دخول التاريخ في الرؤيا ، لان التاريخ يحوي الفلسفة والادب والشعر . وهـــذه العناصر الثلاثة يجب ان تكون مختبئة وراء اللوحة لا على وجهها .

وقال كمال محيي الدين حسين : ان رؤاي قبـل كل شيء باطنية انفعالية انفرادية. تبدأ بعفوية اكثر الاحيان وبنوع من التداعي اللاواعي اعتبـاراً من حادثة معينة تحمل شحنة عاطفية ما . فقـــد تولد اللوحة ، واقول تولد لانهـــا لا ترى النور بشكلها الكامل الا بعد عملية اختمار قد تكون طويلة جداً. فهي تبقى مخفية وراء الادراك والحس الواعي حتى تستكمل عناصرها الفنية والعاطفية. ثم تظهر فجأة وبشكل انفجاري ملح. وقد يكون سبب ظهورها حادثاً عادياً او التفاتة طفيفة . وهذا كله تمليه على الفنان شخصية معينة تحمل نظرة خاصة للعـــالم تفرضها ظروف خاصة مر بهـــا . وقد تظهر هذه الملامح الشخصية في التقنية الخاصة التي تميز اعمـال الفنان ، وقد تتجلى بحبه لعدة اشياء يكررهـا في لوحاته .

اما في الشكل، فهو يرتبط عنديارتباطاً وثيقاً بالفكرة ، وكلما اشتد ارتباطه ازدادت قدرته على تحمل المشكلة . الا انني احكم انتقاء احياناً ، فقد افـاضل واحذف حتى اشعر بالراحة . وقـد تظهر امام مخيلتي اشكال منحرفة عن التكوين الحـــالم السريالي فأرفضهـــا فوراً ، وانتظر اشكالاً افضل تنسجم مع الفكرة ، وفكرة جديدة تنسجم مع العالم المنشود بناؤه . وقد يطول الانتظـار ، لان البداية عندي هي دائماً الانفعال ، والانفعال المؤثر الموحي قليلاً ما يتكرر .